الحياة الطيّبة
السنة ١٥
العدد ٢٤
شتاء ٢٠١٢ م
أبحاث ودراسات

ثورات الربيع العربي وأسئلة الفكر السوسيولوجي: «بيان» للتأمّل والفهم والاستشراف

د. مصطفى محسن[١]

مدخل:

في البدء كان النداء: هذا زمنكم أيها السوسيولوجيون فانتفضوا![٢]

يعيش جلّ مجتمعات الوطن العربي، وفي الشروط الراهنة تحديداً، تحت وطأة إيقاع متواتر لـ «**حراك اجتماعي**» قوي جارف، ممّا تمّ نعته بأنّه «**ثورة**»، أو «**انتفاضة عربية كبرى**»، أو «**حركات اجتماعية احتجاجية**»... لم تقف عند حدّ زعزعة أركان بعض الأنظمة السياسية القائمة في العالم العربي، بل أسقطت بعض رؤوسها من حرّاس استبدادها العتاة. ممّا أعطى لهذه التحوّلات زخماً سياسياً وفكرياً بالغ الدلالة والخطورة، ليس فقط على مستوى سياقه السوسيوحضاري

(١) عالم اجتماع ومفكّر عربي، من المغرب. mostafamohsine@hotmail.fr

(٢) يُشكّل نصّ هذا النداء تمهيداً لدراسة سوسيولوجية مطوّلة حول «الربيع العربي» ستنشر لاحقاً، لذا وجب التنويه والتذكير.

الخاصّ، وإنّما على المستوى الكوني بشكل أعمّ وأشمل[١].

وهكذا أصبح الشرط العربي الراهن، لدى العديد من المثقّفين والمفكّرين والساسة والمهتمّين والباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية...، موضوعاً أثيراً بامتياز؛ لتطارح الكثير من الأسئلة والتساؤلات والقضايا... ممّا كان البعض يُراهن من ورائه إمّا على انخراط ما في دعم أفكار هذا المدّ الانتفاضي العارم وشعاراته وتحرّكاته، وإمّا على نقده، أو نقضه وتفنيد طروحاته، وإمّا على محاولة تتبّعه ومساءلته. وذلك بإنتاج «**معرفة علمية**» عنه، متسمة بأوفر قدر ممكن من الموضوعية والصلاحية والثبات، قادرة على المساهمة في تحليل مكوّنات هذا الواقع الاجتماعي الجديد ومستجداته وتشريحها وتفسيرها، والفهم العقلاني لأبعاده ودلالاته، ورفد ما أصبح يُدعى بـ «**التغيير المخطّط، أو الموجَّه، أو المتحكَّم فيه**»؛ ميكانيزمات، وسيرورات، ومآلات متعدّدة... [٢].

ولا ريب في أنّ قراءة متتبّعة، بشكل خاصّ، لتاريخ السوسيولوجيا بما هي علم حديث النشأة، سوف تكشف لنا مدى اهتمام علماء الاجتماع بالمواكبة المتواصلة لمجمل تحوّلات المجتمعات الغربية بالذات، ولا سيما في بعض محطّاتها وعلاماتها السوسيوتاريخية المعبّرة. فمن الثورة الروسية سنة ١٩١٧م، إلى سوابق الحربين العالميتين ولواحقهما أوائل القرن الماضي وأواسطه، إلى مسيرة الطلاب الحاشدة في ميدان جروفنر

(١) يصعب حصر ما كتب حتى الآن من دراسات ومقالات وتعاليق... عن هذا «الربيع الثوري العربي»، وسنذكر بعض ذلك في مواضعه المناسبة من هذه المساهمة، غير أنّنا نشير من بين هذه الأعمال للاستئناس فقط إلى ما يلي:

- إدريس، سماح: تونس، مصر ... الأمّة العربية تدقّ باب الحرّيّة، مجلة «الآداب» (ملف خاص)، بيروت، السنة ٥٩، العدد يناير – فبراير – مارس٢٠١١م، ص٣٨-١١٢.
- مجموعة كتّاب: ثورة الشباب في مصر (قضية العدد)، مجلة «الدوحة»، قطر – الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، العدد ٤٢، أبريل ٢٠١١، ص٧٠-١٠٦.
- مجموعة كتّاب: الاحتجاجات ومطالب الإصلاح السياسي في المغرب من المعارضة التقليدية إلى شباب ٢٠ فبراير (ملف العدد)، مجلة «رهانات»، مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية، الدار البيضاء، العدد ١٩، صيف ٢٠١١، ص٢-٣٢، ٣٩-٤٥.

(٢) طاهر، جميل؛ العصفور، صالح: مستقبل التخطيط في الأقطار العربية، الكويت، منشورات المعهد العربي للتخطيط، بحوث ومناقشات ندوة عقدت في تونس في ٢٠-٢٢ أبريل ١٩٩٣م.

-Cf. A. Waterston La Planification du développement. Ed. Tendances actuelles. Paris. 1974.

في لندن في ١٧ آذار ١٩٦٨م، إلى «**ربيع براغ**» في تشيكوسلوفاكيا، إلى انتفاضة نيسان ١٩٦٨م بباريس، حيث «**فجأة اشتعل العالم بالحلم. وكان الطلاب هم النار والنور، التحموا بالشارع فانطلق صوت جيل جديد يعلن رفضه لكلّ شيء: الاستبداد، والقهر، والاستبعاد، وتوحّش رأس المال، والنفاق الاجتماعي، والجمود العقدي. ومن ميكسيكو سيتي، وبوينس إيرس، إلى براغ، مروراً بباريس، دفعت فكرة البحث عن الغد الأفضل الأجيال للحلم...**»[١]، أقول: عبر هذه الوقائع والأحداث الثورية كلّها ظلّت السوسيولوجيا – وإلى جانبها جلّ العلوم الاجتماعية والإنسانية في الغرب – ممتلكة لحضورها الوازن المستمر على صُعُد ومستويات معرفية ومنهجية مختلفة، مسائلة هذه الظواهر الثورية؛ بحثاً، وتحليلاً، وتفسيراً، وإنتاجاً لفهوم وتصوّرات وخطابات نقدية عنها: عوامل، ومضامين، ونتائج، وامتدادات فكرية، وآثاراً اقتصادية وسياسية وثقافية وقيمية واجتماعية وحضارية متداخلة...

وهنا تشمخ، في ذاكرة القراءة الآنفة لتاريخ هذا العلم، أسماء رائدة مُؤَسِّسَة نذكر منها، تمثيلاً لا حصراً: ماركس، ودوركايم، ومانهايم، ولوكاش، وميرطون، وبارسونز، وباريتو، وسوروكين، وصولاً إلى ماركوز، والتوسير، وغوديليي، وبولانتزاس، وكاستورياديس، ثمّ ألان تورين، وبودون، وبورديو...[٢].

واهتمّ بعض هؤلاء ممّن عايشوا بزوغ عصر العولمة الجديد، بما أفضت إليه هذه العولمة الكاسحة من «**ثورة هادئة أو ناعمة**» هائلة، تولّد

(١) مجموعة باحثين: تساؤلات حول الثورة – ١٩٦٨-١٩٩٨م-، (ملف العدد)، ترجمة محمد سيف، مجلة «الثقافة العالمية»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٨٨، مايو- يونيو ١٩٩٨، ص٤٠-٩٣. الاقتباس من كلمة رئيس التحرير، ص ٤-٦.

(٢) يُراجع: كنماذج من أعمال بعض هؤلاء:

- ماركوز، هربرت: نحو ثورة جديدة، ترجمة عبد اللطيف شرارة، بيروت، دار العودة، ١٩٧١م.
- تورين، ألان: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، عدد٣٨، ١٩٩٧م، ص٩٣-١٢٥.
- Cf. Pitirim Sorokin : Sociology of révolution. the Free Press. New york. 1983.
- Cf. H. Marcuse : Raison et Révolution (...). Ed. Minuit. Paris. 1968.
- Cf. G. Lukacs : Histoire et Conscience de classe. Ed. Minuit. Paris. 1960.
- Cf. T. Parsons : Sociétés : Essai sur leur évolution comparée. Ed. Paris. 1973.

عنها «**مجتمع المعرفة، والمعلوميّات، والإعلام، والاتّصال، والتواصل الجديد**»، في ظلّ «**النظام الدولي الراهن**». وذلك بكلّ ما يطرحه على كافّة المجتمعات البشرية؛ من فرص، ورهانات، ومصاعب، وتحدّيات، وأحلام، وأزمات مختلفة، ومخاوف، وأوهام... وقد كان إسهام السوسيولوجيا في تحليل متغيّرات هذا الزمن الكوني المعولم ودلالاته وأبعاده وتفسيرها وفهمها؛ دالاً قوّي الأثر والحضور[1]. غير أنّه، إذا كانت «**الحالة الثورية العربية الراهنة**» أدعى الآن إلى ركوب مغامرة البحث السوسيولوجي، فإنّ ممّا يمكن تسجيله من ملاحظات نقدية في هذا المجال هو أن الكثير من هموم واهتمامات علماء الاجتماع في مجتمعنا قد ظلّت في مجملها، ولعقود مضت، متوارية خلف أسوار ما يمكن توصيفه بـ «**مهنيّة، أو حرَفيّة تبسيطيّة**» غالباً ما اختزلت مهمّة أو «**حِرْفَة عالم الاجتماع**»؛ إمّا في ممارسات تدريسية، أو مسؤوليّات أكاديمية نظرية ومنهجية معيّنة داخل المؤسّسة الجامعية أو خارجها، وإمّا بقيت منشغلة بمهام تقديم «**خبرة أو معرفة تحت الطلب**»؛ لفائدة بعض مكاتب الدراسات أو مراكز البحوث الرسمية والخاصة؛ من معطيات، وبيانات، واستقصاءات، واستطلاعات للرأي... ممّا يخدُم مصالح بعض الدوائر البيروقراطية وحاجاتها وأهدافها، وكذلك المؤسّسات الخدمية والمقاولات الإنتاجية وغيرها... أكثر ممّا يستجيب لشروط البحث العلمي الجاد ومعاييره وأعرافه وتقاليده وأهدافه. وذلك دون أن نلغي البتّة ما للاهتمامات والبحوث الآنفة من آثار إيجابية مفيدة. وخاصة فيما يتعلق بالمساهمة، بقدر ما، في توجيه بعض «**مشاريع**» التنمية والتحديث، وترشيد برامجها ومخطّطاتها، وتطوير

(١) يُراجع: حول الثورة المعرفية والمعلوماتية الجديدة:

- كيلش، فرانك: ثورة الإنفوميديا - الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك؟-، سلسلة «عالم المعرفة»، ترجمة حسام الدين زكرياء، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٥٣، يناير ٢٠٠٠م، ص٤٦٥-٤٨٢.
- كاكو، ميتشيو: رؤى مستقبلية - كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين-، سلسلة «عالم المعرفة»، (...)، الكويت، العدد ٢٧٠، يونيو ٢٠٠١.

بعض قطاعات المجتمع ومجالاته ومؤسّساته بشكل عامّ[١].

ويستخلص من أوضاع علم الاجتماع هذه في بلداننا العربية – وحتى بعض الغربية معاً – أنّ هذا العلم لا يواكب، إلا بشكل باهت وخجول، وغير ممنهج ولا مخطّط، مختلف أنماط «**الطلب الاجتماعي**» المتجدّد والمتغيّر للتعليم والتكوين في ميادين علم الاجتماع وفروعه التخصّصية المتطوّرة. وذلك تبعاً لتحوّلات الاقتصاد، وأزمات أسواق المال، واختلالات سوق الشغل، ومشكلات إدماج الطاقات الشبابية المؤهّلة... وما يتواشج مع كلّ ذلك ممّا أصبح يعرفه مجتمعنا من تحوّلات مذهلة ومتسارعة في أنساق القيم الثقافية، وفي كافّة المؤسسات والمجالات والعلاقات الاجتماعية والتبادلات المادية والرمزية المعقّدة، وبما لكلّ هذه المتغيّرات من أبعاد وارتباطات ودلالات محلية وإقليمية وكونية عديدة متشابكة. ويصدق هذا على وضعية العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام[٢].

ونعتقد أنّ بعض عوامل إنتاج وإعادة إنتاج هذه «**القطيعة**» القائمة في مجتمعنا – بقدر ما، وبشكل معيّن – بين السوسيولوجيا ومتغيّرات الواقع الاجتماعي ومطالبه، تشكّل، في تقديرنا، بعض مظاهر «**أزمة علم الاجتماع**» في مجتمع هو ذاته متوعّك «**مأزوم**» على أكثر من صعيد، مجتمع ما يزال لم يوفّق بعد في بلورة «**مشروع مجتمعي**» متكامل المكوّنات، واضح الأهداف والمعالم والرهانات... مشروع قادر على أن يشكّل «**مرجعية فكرية واجتماعية**» موجّهة بدورها لـ «**مشروع / مشاريع علمية مطابقة** Adéquates »، متفاعلة بشكل إيجابي منتج مع شروطها المعرفية والسوسيوحضارية المتغيّرة؛ وفقاً

(١) يُراجع: حول نقد الحرفية في علم الاجتماع بشكل عام:
- بورديو، بيير: أسئلة علم الاجتماع – حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي–، ترجمة ابراهيم فتحي، ط١، القاهرة، دار العالم الثالث، ١٩٩٥م، ص١٣–١١٠.

(٢) مجموعة باحثين: أي مستقبل لكليات الآداب والعلوم الإنسانية؟(أعمال ندوة)، ط١، الرباط – أكدال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة «ندوات ومناظرات»، رقم ١٥٢، ٢٠٠٨م،
- Cf. collectif : Quel avenir pour les facultés des lettres et des sciences humaines? Publications de la faculté des Lettres et des sciences humaines. Rabat-Agdal. Série « ColloQues et séminaires » N°152. 1ère Ed. 2008.

لخصوصيات الزمان والمكان وظرفياتهما[١]....

إلا أنّ هذه الأزمة المتنامية لعلم الاجتماع عندنا، والتي كان من بين مستتبعاتها تركه لـ «**فراغ بحثي معرفي**» بادرت إلى سدّه – ضمن بعض الحدود والمواضعات النظرية والمنهجية – علوم اجتماعية مجاورة، مثل: الاقتصاد، والعلوم السياسية، والجغرافيا البشرية، والتاريخ...، إلا أنّها لا تعفي، في تصورنا، هذا العلم من ضرورة إعادة النظر في ذاته، في مشكلاته، وفي عوائقه الإبستمولوجية والاجتماعية؛ أي في كلّ جوانب أزمته الحالية ومظاهرها وعواملها وأبعادها وتبعاتها. وهكذا فإنّ «**سوسيولوجيا نقدية للممارسة السوسيولوجية**» في مجتمعنا؛ مجالاً بحثياً، وتوجّهات، ومؤسّسات، وأطراً فكرية واجتماعية، وفاعلين، ورهانات، وآليات اشتغال...[٢]، قد غدت مطلباً علمياً وتربوياً واجتماعياً وحضارياً، يوجب على كلّ علماء الاجتماع في مجتمعاتنا العربية، الآن وأكثر من أي وقت مضى، مضاعفة الجهود، وتحفيز الأفراد والمؤسّسات، والتقريب ما بين غاياتها ومشاريعها ورهاناتها ومرجعيّاتها وأساليب عملها، وتوفير ما يستلزمه كلّ ذلك من عتاد لوجيستيكي، وإمكانيات مادّية وبشرية وتدبيرية وحكّامية... ممّا يُفترض أن يمكّنها من تحقيق «**نهوض علمي تشاركي**»؛ تتكامل فيه وتترافد المرجعيات والإمكانات، وعناصر التجديد والإبداع ومقوماتهما، في إطار سياسات مندمجة للبحث العلمي والتربوي، ورهانات معرفية واجتماعية واضحة متناغمة، تشكل المدخل السليم لذلك «**المشروع العلمي والاجتماعي - الحضاري**» المُفْتَقَد؛

(١) عن أوضاع علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية والإنسانية في الوطن العربي والعالم، يُراجع: على سبيل ذكر بعض المراجع، إلى:

- مجموعة مؤلّفين: العلوم الإنسانية والاجتماعية - طروحات ومقاربات-، الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٩٩٨م.
- مجموعة باحثين: راهن العلوم الإنسانية - أي نموذج تربوي؟(عدد خاص) -، مجلة «عالم التربية»، المغرب، الجديدة، العدد ١٦، ٢٠٠٥م.
- Cf. R. Boudon : La crise de la sociologie. Ed. Droz. Paris-Genève. 1971.

(٢) يُراجع: بشأن هذه السوسيولوجيا النقدية:

- Cf. P. Bourdieu et Loic J.D. WacQuant : Réponses : Pour une anthropologie réflexive. Ed. Seuil. Paris. 1992.

بما هو سيرورة ديناميكية متواصلة لا تنتهي من التجدّد والتطوّر والخلق والإبداع والتجاوز والبناء المستديم... [١].

في إطار هذه الحيثيّات والشروط السوسيومعرفية المنوّه بها فيما سبق، تبدو لنا أهمّيّة المساءلة التحليلية النقدية لما وُصِفَ بأنّه «**ثورة عربية كبرى**» تفجّرت أمواجاً عاتيةً من الاحتجاج والانتفاض والغضب الشبابي والشعبي، في بؤر عديدة، على امتداد خريطة الوطن العربي. وذلك من أجل المجابهة الجذرية للاستبداد والفساد والقهر والتخلّف ومصادرة الحقوق... ورفع شعارات الصبو إلى عالم أفضل تسود فيه الحرّيّة والعدالة وكرامة الإنسان... وتبقى الغاية من هذه المساءلة النقدية المذكورة متمثّلة، أساساً، في فهم طبيعة ما جرى ويجري في حمأة هذا المدّ الثوري الهادر، ومعرفة أهمّ مسبّباته وبواعثه، في سياقاتها المحلية وأبعادها الإنسانية، ثمّ استثمار كلّ ذلك في محاولة استشراف هادئ وهادف وموضوعي، ما أمكن لما يُتوقَّع أن ينجم عن تفاعلات هذا الحراك الثوري في بلداننا العربية، وفي العالم؛ من مآلات، ومصائر، ونتائج؛ سواء في المستقبل المنظور أو البعيد...[٢].

لا شكّ في أنّ مجالات أو مستويات مساءلة هذا الواقع العربي المستجدّ كثيرة، وهي متعدّدة الرؤى والجوانب وأنماط المقاربات والمناهج ونماذج التحليل ومداخل التخصّص والاهتمام... ولذا،

(١) إضافة إلى المراجع المذكورة في الهوامش (٩/٨/٧) الآنفة الذكر، يُراجع أيضاً:
- مجموعة باحثين: السوسيولوجيا المغربية المعاصرة - حصيلة وتقييم-(أعمال ندوة)، ط١، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة «ندوات ومناظرات» رقم١١، ١٩٨٨م.
- مجموعة باحثين: الجامعة والشراكة - أي دور للعلوم الإنسانية والاجتماعية؟-(أعمال ندوة)، ط١، المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية(المغرب)، سلسلة «الندوات» رقم٨، ١٩٩٩م.

(٢) نُذكّر بأنّ هذا المدّ الثوري العربي المحتدم الآن قد تمّت مواكبته، من طرف العديد من الإعلاميين والكتّاب والفاعلين السياسيين وغيرهم، بزخم هائل من الكتابات، مجملها في شكل مقالات أو خواطر أو مذكّرات أو متابعات... غير أنّنا لاحظنا أنّ حظّ العلوم الاجتماعية من هذه الكتابات كان وما يزال حتى الآن متواضعاً، وربما كان ذلك قصدياً؛ بغرض الإصغاء المتأنّي لما يحصُل، والتريّث في معالجة عوامله ومضامينه وآفاق تطوره بلا استباق متسّرع لمسارات الأحداث. ولذا فقد آثرنا أن تأتي مساهمتنا هذه مركّزة على رؤية منهجية مفتوحة لمساءلة هذا الواقع الجديد وفهمه، أكثر منها محاولة لتقديم قناعات أو أجوبة مؤكّدة. على أمل أن نتمكّن من تعميق ذلك ومراجعته في ما بعد (نتحدث عن دراستنا كلّها، وليس عن هذا «البيان» فقط).

فإنّي لا أدّعي أبداً، في هذه المساهمة الأوّلية، أي قدرة على الإلمام الحصري بها. كما أنّي، وبكلّ ما يتطلّبه الموقف من أعراف وأخلاقيات وقيم معرفية علمية؛ نظرية وعملية، لا أستطيع التنطّع لأساتذتي وزملائي من علماء الاجتماع، فأزعم بأني أستطيع هنا أن أعرض كلّ جوانب الاهتمام المشار إليها ومحاوره، أو أنّي سأقدم عنها كلّ ما يكفي من المقاربة والتحليل والمساءلة والنقد والاستشراف... إنّ أقصى ما تطمح إليه هذه الورقة، ضمن هذه المحدوديات كلّها، هو أن تشكل «**بيانا دعويا**» أو ما يشبه ذلك. هو في مقصديته الفكرية والسياسية والاجتماعية «**نداء استنهاضي**» لكلّ مكوّنات وفعاليّات وفاعلي «**الجماعة العلمية**» المنتمية إلى حقل السوسيولوجيا خاصّة، وكافّة العلوم الاجتماعية والإنسانية عموماً. وذلك تذكيراً بجسام المسؤوليات والأدوار[1].

هكذا أجدني محفّزاً للمجاهرة بالنداء: هذه فرصتكم أيها السوسيولوجيون الأفذاذ في مجتمعنا، وهذا زمن «**قومتكم الفكرية**» المنتظرة؛ لنبذ الصمت، وكلّ «**قومات**» التخلّف والتطرّف والرداءة الثقافية والقيميّة والسياسية السائدة في سياقنا العربي، ولاستعادة مبادرتكم المأمولة المفتقدة.

غير أنّي، وأنا ألهج بدعوتكم إلى هذا النهوض المنشود، أتمنّى صادقاً لو يتخلّى بعضنا عن بعض العُدَد النظرية والمنهجية المتقادمة، التي غدت أشبه ما يكون بعتاد الأسلحة الفاسدة المخزّنة في ترسانات الجيوش

(١) يُراجع: بشأن بعض قواعد البحث وأعرافه وأصوله التي ينبغي أن يلزم بها أعضاء «الجماعة العلمية» في السوسيولوجيا بالذات:

- بورديو، بيير؛ آخرون: حرفة عالم الاجتماع، ترجمة د. نظير جاهل، ط١، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٩٣م، ص١١-٤١.
- Cf. Saddik Benkada : « la société savante » (...). revue « INSANIYAT ». Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle. Oran. Agérie. N°8. mai-août. (vol. III-2). 1992. pp : (119128-).
- Cf. G. Lemaine et B. Matalon : La lutte pour la vie dans la cité scientifiQue. Revue Française de Sociologie. x.21. 1969. pp : (139165-).

العربية. كما أسعى إلى أن نتحصَّنَ جميعاً، في هذه «**الانتفاضة العلمية**» الموازية لانتفاضات الشارع العربي، بالقواعد الأصليّة والمتجدّدة للممارسة العلمية، وتعزيز ذلك بما دعاه رايت ميلز بـ «**خيال سوسيولوجي**». بمعناه العلمي؛ أي امتلاك الباحث لكلّ المقوّمات والقدرات التي تمكّنه من الاجتراح المبدع الخلّاق؛ لأسئلة التحليل والنقد والحدس والتوقّع والتأويل والاستباق وأفكارها، وفتح الممكن من الآفاق الرحبة للتأمّل والنظر والعمل، وتوسيع دوائر الإدراك والتصوّر وآلياتهما وفضاءاتهما، وإصدار الأحكام، واتّخاذ المواقف والقرارات...[١]. وذلك بشكل ينتظر منه «**تجاوز**» المعارف المباشرة والتبسيطية الضيّقة، والاختزال المُسف، واعتماد «**تجريبية فجّة وساذجة**» غالباً ما تقود الباحث، حسب رايت ميلز نفسه، إلى الوقوع في منزلقات عوائق وعواقب ما يسمّيه بـ «**كبح منهجي** : Inhibition méthodologique»، لا يساعد على بلورة معرفة علمية دقيقة مؤصّلة ومنفتحة في آن، بقدر ما يفضي إلى إنتاج وموالاة إنتاج ما لا يستهان به من الأوهام والأضاليل «**المعرفية**»؛ المسهمة بدورها في تشكيل «**وعي زائف**» بالواقع موضوع النظر؛ سواء على مستوى التفكير، أو على مستوى الممارسة المتعيّنة في آن[٢].

هكذا إذن، وبناءً على توجّه «**البيان**» هذا ومضمونه، يمكن للفكر السوسيولوجي خاصّة، وللعلوم الاجتماعية بشكل عامّ، القيام بمهامّ المعالجة النقدية التفكيكية المنوّه بها قبلاً؛ للعديد من القضايا

(١) برتو، دانيال: المنهجية في العلوم الاجتماعية، في مجلة «الفكر العربي»(ملف خاص): «الكتابة الاجتماعية
ومناهجها المعاصرة»، طرابلس – ليبيا، معهد الإنماء العربي؛ بيروت، السنة الأولى، العدد السادس، ١٥ نوفمبر – ١٥ ديسمبر ١٩٧٨م، ص٨–٢٢.
- Cf. C.W. Mills : L'imagination sociologiQue. Ed. Maspero. Paris. 1971.

(٢) ميلز، رايت: التجريبية التجريدية، ترجمة د. عدنان الأمين، مجلة الفكر العربي، م.س، ص٨١–٩٨.
– بورديو، بيير؛ فاكونت، ج. د.: أسئلة علم الاجتماع – في علم الاجتماع الانعكاسي–، ترجمة عبد الجليل الكور، إشراف ومراجعة محمد بودودو، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ١٩٩٧م، ص١٦٥–١٩٩.
- Cf. A. Gouldmer : For Sociology : Renwal and Critic in sociology today. Penguin Books. 1975.
- Cf. P. Feyeraband : Contre la méthode (...). Ed. Seuil. Paris 1979.

والإشكالات الفكرية والسوسيوسياسية والحضارية التي يثيرها «**ربيع الثورة العربي**» هنا والآن. وذلك من قبيل، بحث ومساءلة: أبعاد مفاهيم الثورة أو الاحتجاج أو الانتفاض ودلالاتها...، والعوامل الذاتية والموضوعية لهذا الحراك الثوري العربي، وفاعليه من الشباب وبقية الشرائح والمؤسسات والفعاليات السياسية والاجتماعية...، ثمّ ما هي دروس هذا الحراك وعبره ونتائجه المركزية...؟ وما هي هواجسه ومطالبه وبدائله وآماله ورهاناته الحالية والمستقبلية...؟ ثمّ ما هي أهمّ انعكاساته وتداعياته على «**مشروع النهوض الحضاري العربي**»، وعلى مجمل آفاق التنمية والتحديث والإصلاح الديمقراطي ومساراتها في مجتمعاتنا العربية...؟

إنّ هذه القضايا الإشكالية المعقّدة المتعدّدة الامتدادات والجوانب والأبعاد...، والمستلزمة لاعتماد منظورات تخصّصية ومقاربيّة متنوّعة ومتكاملة في آن، هي وغيرها كثير، من أهمّ ما يشغلنا الآن، وممّا سنحاول تجريب مساءلته، والتفكير النقدي فيه في مباحث لاحقة على هذه المساهمة التمهيدية، التي لم نكن نريد منها أن تشكّل سوى «**نداء أو دعوة**» للسوسيولوجيين تحديداً، ولكلّ الباحثين في العلوم الاجتماعية عموماً. وذلك من أجل الانخراط الإيجابي الفاعل والمسؤول في معترك «**ثورات الربيع العربي**» المتأجّجة الآن، بحثاً عن الدلالة والمعنى، ورفداً لتنضيج التفكير النقدي والمساءلة والفهم والاستشراف... وتأكيداً لقيمة المعرفة العلمية ومكانتها وضرورتها، وإمكانات نجاعتها التاريخية في هذا الشرط العربي الراهن والاستثنائي بامتياز، وتثميناً لالتزامها بقضايا الوطن والأمّة، بل وبكلّ الهموم والتطلّعات والقيم الإنسانية النبيلة بشكل أوسع وأشمل: قيم الحقّ والخير والجمال... !وهل تسعى الجماهير العربية الثائرة من المحيط إلى الخليج سوى إلى تحقيق هذه المطامح والقيم الأصلية؟ ألا تصدع حناجرها وهتافاتها وشعاراتها في حشودها الهادرة إلا بمطالبها المشروعة في الحرّيّة ورفض الاستبداد

والفساد والاستبعاد... وإلا بأحلامها بفجر العدالة والمساواة ونيل الحقوق وصون كرامة الإنسان المهدورة في مجتمعاتنا...؟ بلى، ذلك ما نعتقده، وما نرى أنه يفترض في العلوم الاجتماعية أن تنهض، في حدود مجالاتها ومهامها المعرفية والتاريخية، ببعض مسؤوليات مساندته ودعمه؛ خدمة لأهداف الحاضر والمستقبل ورهاناتهما، ومساهمة في تأهيل مجتمعاتنا لبلوغ الجدارة المطلوبة، وكسب استحقاقات لحظتها الحضارية الراهنة.